المبحث الثالث
العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الأناضول

أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية من بلاد الشام:

إن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناس أهمية إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك عد تدعيما حقيقياً لسلطانها في حلب ذاتها[١].

١ – العلاقة مع شيزر:

كان نور الدين قبل سنة ٥٥٢هـ لا يهاجم شيزر لانشغاله عنها لجهاد الإفرنج وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين ولكنها أصيبت في هذا العام سنة ٥٥٢هـ بزلزلة وانهدم الحصن وقتل جميع آل منقذ الموجودين [٢] فيه فبادر إليها بعض أمراء نور الدين وقصد إليها وجدد أسوارها فعادت جديدة [٣]، ودخلت شيزر في دولة نور الدين وحقق ضمها مكاسب تجارية وسياسية وإستراتيجية للزنكيين فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص، بحيث جعلت لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس، ومن جهة أخرى صار إخضاعها أمراً تمليه الأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها حيث أنهم بادروا إلى ذلك في نفس العام [٤]، ولا شك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أي وقت مضى أهمية إخضاع شيزر لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة [٥]. إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر بمثل تلك السهولة التي توردها المصادر دلالة واضحة على أن النفوذ السياسي لبني منقذ حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطي لنور الدين الحافز القوي للإجهاز على كيان سياسي محلي متلاشٍ [٦] وهذا يذكرنا بسنة من سنن الله في خلقه وهي إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه وقد تحدث الأمير أسامة بن منقذ عما حدث لقومه من زَلزلة عظيمة في شيرز، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ وقتل عدد كثير من بني منقذ في هذه الزلزلة وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه فقال في رثائهم:

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ::: ولا تخرَّمهم مثنى ووحدانا
فكنت أصبرُ عنهم صبر محتسب ::: وأحمد الخطب فيهم عَزَّ أو هانا
وأقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا ::: أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥.
(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٢٣٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٥.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٦.
(٦) المصدر نفسه ص ١١٦.

ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا ::: هل ما ترى تارك للحين إنسانا
ما يتركِ الدهُر لي من بعد فقدهم ::: قلباً أُجَشَّمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسْعدنا ::: وعاش للهمِّ والأحزان أشقانا
هذى قصورهم أمست قبورهم ::: كذاك كانوا بها من قبل سكانا
بنو أبي وبنو عمي دمي دَمهم ::: وإن أَرُؤني منواة وشنَانا
يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلوا ::: وخلفوني على الآثار عجْلانا [١]

ورثى أسامة كذلك ولده عتيق وبكاه في أكثر من قصيدة وكان حزنه لموته شديداً فمما قال فيه:

عَالَبْتني عليك أيِدى المنايا ::: ولها في النفوس أمر مطاع
فتخليت عنك عجزاً ::: ولو أغنى دفاعي لطال عنك الدفاع
وأرادت جميل صبري فرامت ::: مطلباً في الخطوب لا يُستطاع[٢]

ونلاحظ في رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متأثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهما وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق، والفاجعة الأليمة، وحيث إن رثاءه كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة ما يشعر به تجاه هؤلاء الأقارب، فإن كلمته كانت صادقة ومؤثرة، وبعيدة عن التصنع والتكلف [٣].

٢ – الأسرة الجندلية في بعلبك:

وامتداد لسياسة تحجيم الأسر الحاكمة المحلية وإضعافها حتى لا تنافس الدولة النورية في حلب ودمشق سعت الدولة النورية إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على بعلبك، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانت بالمذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال تواجدها وسط محيط سني متحمس - للكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة - ومناوئ للبدع الشيعية الرافضية الباطنية - وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأتابكية دمشق، وأدرك خطورة السيطرة الدولة النورية على دمشق عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة والصليبيين تارة أخرى [٤]، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً [٥] ولا مراء في أن الدولة النورية السنية نظرت بارتياب إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي، وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م [٦] وكان ذلك بعد المهادنة والاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يظهر

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٣٧/١، ٣٣٨).
(٢) الديوان ص ٥٢٦.
(٣) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ص ٣٠١.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٧.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٧.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.

الضحاك مقاومة وأجاب أمر نور الدين وهكذا شهد عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م تأميناً لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعيم السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأ أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية ولم يعد سهل البقاع يحوى قوة تمثل موضعاً مضاداً للنفوذ النوري [١].

٣ – ضم حرّان:

اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير ميران [٢] ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر، حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م أوصى أن يكون نصرة الدين خليفته على عرش الدولة النورية، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولى على السلطة ويبدو أنه تحصل على دعم من الشيعة الإسماعيلية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه وطبيعي أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تمتع به السنة ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان نفوذهم في الدولة النورية وتمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثل أهم عوامل فشل المحاولة، على الرغم من وجود تنسيق بين المتآمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسين للدولة سياسياً واقتصادياً، وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تمتعت بيقظة كبيرة، إذ المتآمرون سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل، غير أنها سقطت في أيدي الشحنجية، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة [٣] وأمام تلك الأحداث قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة شهرين وأسقطها عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م [٤]، ولاذ نصرة الدين بالفرار ولا نزاع في أن الاستيلاء على حران دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الشيعة الإسماعيلية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية بالرغم مما حدث، فتحسنت العلاقات بينهم [٥]، بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه في بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين في حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٥) زبدة الحلب (٣٢١/٢) فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.

(١)، وبانياس عام ٥٦٠هـ/١١٦٥م(٢).

٤ – منبج:

حاول الأمير غازي بن حسان المنبجي الاستقلال بمنبج، وهي التي آلت إليه، بعد وفاة والده، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكري، لقمع حركته حتى لا تستشري عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام وبالفعل أخمد حركته في عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م(٣)، وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان، وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال الشام وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام، فإنه أيضاً لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق، على نحو يثير له المتاعب من جهة، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على توحيد المدن الإسلامية ولم تكن مجهوداته في هذا الصدد بصورة عشوائية (٤).

وقال العماد الأصفهاني في فتح منبج عام ٥٦٣هـ قصيدة جاء فيها:

بشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبج ::: فليَهنِ هذا النّصرُ كل متوَّج
أُعطيت هذا الفتحَ مفتاحاً به ::: في الملك يفتح كلَّ باب مُرْتجِ
وافى يُبَشَّرُ بالفتوح وراءه ::: فانهض إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشر فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً ::: ولمنبجٌ لسواه كالأنموذَجِ
ما أعجزتْكَ الشُّهبُ في أبراجها ::: طلبا فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ
ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يَرى ::: أثر العُبوسِ بوجهكَ المُتَبلِّجِ
لكن تهذَّبُ من عصَاكَ سياسة ::: في ضمنها تقويمُ كلَّ مُعَوَّجِ
فانهض إلى البيت المقدس غازيا ::: وعلى طرابُلُس ونابُلُس عُجِ
قد سِرتَ في الإسلام أحسنَ سيرة ::: مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سُننِ الهُدى ::: جَدَّدْت منه كلَّ رسم مُنْهَجِ (٥)

٥ – فتح قلعة جعبر:

وأما سياسة الدولة تجاه قلعة جعبر، فإنها لم تشأ أن تجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام

(١) البستان الجامع للأصفهاني ص ١٤٥ فن الصراع ص ١٢٠.
(٢) شذرات الذهب نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.
(٣) الباهر ص ١٣٤ ـ ١٣٥ فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٢١.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٣/٢).

مراكز قوية قد تعاديه يوماً، فقد كانت قلعة جعبر تقع على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنيعة، وقد اهتم عماد الدين زنكي بفتحها وقد قتل وهو يحاصرها عام ٥٤١هـ/١١٤٦م وقد استخدم نور الدين محمود الطرق السلمية مع شهاب الدين العقيلي فبعد أن أسره على أيدى أعراب بني كلاب، عمل على إكرامه في أسره وملاينته لتسليم القلعة غير أنه رفض [١]، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة سعى إلى حصارها بيد أنه عجز عن ذلك، فعاد مرة أخرى لملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب بزاعة [٢]، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار وهكذا تمكن من الاستيلاء عليها عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م [٣].

ولكل ولاية نهاية، يؤتي الله الملك من يشاء وينزعه وكان آخر أمر بني مالك حكام قلعة جعبر وكان آخر أمرئهم شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقيلي من آل عقيل من بني المسيَّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبل من أيام السلطان ملكشاه [٤]. وقيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسروج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه [٥] وقال العماد الأصفهاني قصيدة أنشدها لنور الدين لقلعة جعبر جاء فيها:

اســـلم لبكـــر الفُتـــوح مُفتَرِعـــا ::: وَدُمْ لمُلـــك الـــبلاد منتزِعـــا
فـــإنَّ أولـــى الـــورى بهـــا مَلِـــكٌ ::: غـــدا بعـــبء الخُطُـــوب مضـــطلِعاً
إن ضـــاق أمـــر فغيـــرُ همتـــه ::: لكشـــفِ ضـــيقِ الأمـــور لـــن يَسَـــعا
يـــا محيـــي العـــدل بعـــد مِيْتَتِـــه ::: ورافـــع الحـــقِّ بعـــدما القَنَعـــا
ونـــور ديـــن الهـــدى الـــذي قَمَـــع ::: الشـــرك وعفَّـــى الضَّـــلال والبِـــدَعا
أنـــت ســـليمان فـــي العفـــاف وفـــي ::: الملـــكِ وتحكـــي بزهـــدك اليَسَـــعا
وحُـــزت التُّقـــى والحيـــاء والكـــرم ::: المحـــضَ وحُســـنَ اليقـــينِ والوَرَعـــا
أســـقطت أقســـاط مـــا وجـــدت ::: مـــن المَكْـــسِ بعـــدلٍ والقاســـطُ ارتـــدعا

إلى أن قال:

ومالـــك حـــين رُمـــت قَلْعَتَـــهُ ::: غـــدا مطيعـــاً للأمـــر مُتَّبِعـــا
عنـــا خشـــوعاً لـــربَّ مملكـــةٍ ::: لغيـــر ربَّ الســـماء مـــا خشـــعا [٦]

وفي سابع عشر صفر من سنة ٥٦٤هـ توفي بها عمر أخو مجد الدين ابن الدّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنـــتم لمحمـــودٍ كـــآلِ محمـــدٍ ::: متصـــادفي الأفعـــال والأســـماء
يتلـــو أبـــا بكـــر علـــى حســـناته ::: عمُـــر الممَّـــدحُ فـــي ســـنا وســـناء

(١) نهاية الأرب نقلاً عن فن الصراع ص ١٢٢.
(٢) البستان الجامع نقلاً عن فن الصراع ص ١٢٢.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٢/٢).
(٤) كتاب الروضتين (٤١/١، ٤٢، ٤٣).
(٥) المصدر نفسه (٤٣/١).
(٦) المصدر نفسه (٤٤/١).

ويليـــــه عثمـــــانُ المرجَّـــــى للعُـــــلا ::: وعلـــــيٌّ المـــــأمولُ فـــــي الـــــلأواء
ويقبِّـــــلُ الحســـــنَ الممجَّـــــدَ مجـــــدهم ::: فهـــــمُ ذُوو الإحســـــان والنعمَـــــاء
فرعـــت بمجـــد الـــدين إخوتـــه الـــذُّرى ::: دون الـــورى فـــي المجـــد والعليـــاء
مـــن ســـابق كرمـــاً وشـــمس ســـيادةٍ ::: شـــرفاً وبـــدر دُجُنَّـــةٍ وبهـــاء
سُـرُجُ الهـدى سُـحُبُ النَّـدى شُـهُب النُّهـى ::: أســـدُ الحـــروب ضـــراغمُ الهيجـــاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين عليا، وبدر الدين حسناً وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى [١].

ثانياً: ضم الموصل:

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في شهر ذي الحجة عام ٥٦٥هـ/ شهر آب عام ١١٧٠م مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة لـه، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس وكان يخطب لـه في بلاده باختياره من غير خوف [٢]، وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليته، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني [٣]، ويبدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين زنكي نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكرهه: لظلم كان فيه ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليته الأمور [٤]. وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحى فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم[٥] أدَّت التغييرات التي شهدتها دولـة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى ما يلي:

- خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.
- تقلص رقعتها بسبب اقتطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أِنف من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكُّمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخاه الأكبر على الحكم، وشقَّ عليه إبعاد عماد

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٠٢/٤٥).
(٢) الباهر ص ١٤٩ تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٦ تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.
(٤) الباهر نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.

الدين زنكي عن خلافة والده وقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم [١]. لذلك قرَّر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله (٥٦٦هـ - ٥٧٥هـ/١١٧٠ - ١١٨٠) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته وقال: إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره ووارثه وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً في ذلك، وأنه ممتثل لما يرد عليه[٢] منه. وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جَعْبَر في شهر محرم عام ٥٦٦هـ/شهر أيلول عام ١١٧٠م قاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إياها [٣]. ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام المجانيق عليها. ووفد عليه أثناء الحصار، عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم عليه حتى سقطت في يده، فأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار، خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، ألقى نفسه عند حصن نينوى شرقي الموصل بحيث أضحى لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضَّح له أن الهدف من حملته، حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصرانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة، نفَّرت منه الأمراء [٤].

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبَّرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليمه الموصل، فأراد تقوية موقفه، فاستنجد بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولا إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة وقال للرسول: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلم تُدخل نفسك بيننا؟ ثم هدّده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه لأنه أهمل حفظ البلد من تعديات الكرج [٥]، واضطر عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم واشترط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.
- يعطيه لنفسه وأهله.
- يمنحه إقطاعاً.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصرّ على خروج عبد المسيح من

(١) الباهر ص ١٥٢ تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.
(٢) البرق الشامي ص ٩٤.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٥.

الموصل، ومرافقته إلى البلاد الشام [١] ودخل صاحب حلب الموصل في شهر جمادي الأولى عام ٥٦٦هـ شهر كانون الثاني عام ١١٧١م من باب السر [٢]، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها منها:

- أقرَّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.
- ولَّى مملوكه سعد الدين كمشتكين نائباً عنه في القلعة.
- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.
- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوّجه ابنته.
- أبطل المكوس من البلاد.
- أمر ببناء الجامع النوري.

انتزع حّران ونصيبين والخابور والمجدل من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء عسكره، ثم عاد إلى بلاد

الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح وغيَّر له اسمه، وسمّاه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً[٣]

غيَّرت هذه الترتيبات الإدارية التي نفّذها نور الدين محمود في الوضع الجغرافي لدولة الموصل كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خضوعاً تاماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية. وتدليلاً على هيمنته على الإمارة فقد أُعلِنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود وضربت السكة باسمه [٤]، وأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليده ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في ديار بكر وخلاط وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعها [٥]، وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م أرسل إليه هدية نفيسة هي عبارة عن تحف نادرة كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبها من خزائن القصر الفاطمي، بالإضافة إلى هدايا أخرى تشتمل على منسوجات وعود وعنبر

(١) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٦.

.[١]

حين دخل نور الدين الموصل خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأكرمه وأحسن إليه، وألبسِه خِلعة جاءته من الخليفة، فدخل بها إلى البلد في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوِي الشتاء، فأقام بها، أربعة وعشرين يوماً، فلما كانت آخرُ ليلة أقام بها رأى رسول الله ρ في المنام يقول له: طابت لك بلدُكَ وتركت الجهاد وقتال أعداء الله. فنهض من فوره إلى السَّفر، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام واستقضى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب بها ابنُ أبي عصرون نوّابا وأصحابا [٢].

٢ – بشرى لنور الدين من رسول الله:

قال أبو شامة: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جُزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتَبسَّم لتتم السلسلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج [٣]. وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ρ وقال له: أعْلِمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدَّقني، فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارِم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر؟ قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركَّع فيه، حتى يصلِّي الصبح قال: فتعرَّضتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك [٤] الليلة وجاء في رواية سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك فقال: إمامه يحيى: إنه رأى النبي ρ في النوم يقول: يا يحيى بشّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط. فقلت: يا رسول الله، ربمّا لا يصّدقني فقال: قل له: بعلامة يوم حارم. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحي، فقال له: يا يحيى: أنا أُحدّثُك، رأيت النبي ρ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال نعم فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لمّا التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرّغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً (يعني نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر؟ الدين دينُك، والجند جنُدك،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٦.
(٢) البداية والنهاية (٤٤٧/١٦).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤٣/٢).
(٤) المصدر نفسه (١٤٣/٢، ١٤٤).

وهذا اليوم افْعَلْ ما يليق بكرمك قال: فنصرنا الله عليهم [١].

٣ – رؤية نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف:

هناك قصة شائعة على ألسنة الناس وهي أن نور الدين رأى فيما يرى النائم النبي ρ يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين - وأشار إلى شخصين تجاهه - فاستدعى نور الدين وزيره فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ρ من الحجرة الشريفة ووجدهما قد حفر نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضربا أعناقهما، ثم أحرقا بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة ٥٥٨هـ وكتب اسم نور الدين على باب البقيع [٢]. وقد علق الأستاذ إبراهيم الزيبق على هذه القصة في تحقيقه لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية - والصلاحية فقال: وهذه القصة لا تثبت لدى المنهج العلمي، إذ أن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة ٧٤١هـ في كتابه التعريف بما أنستِ الهجرة من معالم دار الهجرة وبينه وبين نور الدين مئة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر - وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف - وقد سمعها يعقوب ممن حدَّثه من أكابر من أدرك، ولم يجزم المطري بصحتها فقال: هكذا حدَّثني عمن حدثه وروى نحوها جمال الدين الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢هـ في رسالة له دون إسناد نقلها عنه السمهودي في وفاء الوفاء [٣]، وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له كابن عساكر وابن منقذ والعماد الأصفهاني الكاتب ولا من المتتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في (الدرة الثمينة) وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في (تحقيق النصرة)، وابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية، والسمهودي في وفاء الوفاء، وابن العماد في شذرات الذهب، والبرزنجي في (نزهة الناظرين) [٤]. ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة (٥٥٧هـ) ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم

(١) مرآة الزمان (٢٠٠/١٩٩/٨) من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حسني أدهم جرّار ص ٣٩.
(٢) شذرات الذهب (٣٨٠/٦) الوجيز في الشام ص ٥٢.
(٣) وفاء الوفاء (٦٤٨/٢، ٦٥٠).
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣١٧/٢).

يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين بعده، ولا عبرة بما ذكره الفاسي في شفاء الغرام [١] من أن نور الدين حجَّ سنة (٥٥٦هـ) فقد وهم في ذلك، إذ إن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه [٢]. وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة؟ فأقول: ربما أثارت تكملة نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرة قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع ما سيأتي - بإذن الله - من محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة وذلك سنة (٥٧٨هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير من رحلة والمقريزي في خططه، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد ليكشف عن هاجس أقلق بال المسلمين وقتئذ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونه في الخفاء، فكانت هذه القصة والله أعلم [٣].

ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم:

كان نور الدين محمود يتابع الأحداث الجارية في المنطقة ويستغل الفرصة المتاحة لتحقيق أهدافه، من ذلك ما حدث عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م عندما هاجم قلج أرسلان سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى إمارة ذي النون بن دانشمند التي تتألف من ملطية وسيواس جنوب شرق الأناضول واحتلها، فلجأ ذو النون إلى نور الدين مستنجداً فأرسل نور الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه رد بلاد ذي النون عليه فرفض، فسار بجيشه إلى المنطقة واحتل مدنها مما أجبر قلج أرسلان لطلب الصلح بالشروط التي يفرضها نور الدين، فأرسل إليه نور الدين رسالة منها: إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها أنك تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام فإنني لا أعتقدك مؤمناً والثاني إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسّيره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإمّا أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الإفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله [٤]. واستقر الصلح بعد أن عادت بلاد ذي النون إليه مع بقائها تحت حماية نور الدين وما يهمنا من هذه الحادثة هو ما يظهر في ثناياها من سعي نور الدين لتحقيق هدفه

(١) المصدر نفسه (٣١٧/٢).
(٢) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (٣١٧/٢).
(٣) المصدر نفسه (٣١٧/٢).
(٤) الباهر ص ١٦٠ - ١٦٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.

الإستراتيجي الأكبر الذي سبق وذكرناه وهو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في تحقيق الهداية والعدالة والحياة الكريمة لجميع الناس [١] ومع أنه لم يكمل بعد تحقيق هدفه الإستراتيجي الثاني المتمثل بالقضاء على الفرنج وتحرير سواحل بلاد الشام من احتلالهم إلا أنه حقق هدفه الإستراتيجي الأول وهو وحدة الدول، والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط، فلا بأس إذن من استغلال فرصة سانحة للسير ولو بضع خطوات باتجاه الهدف الإستراتيجي الأكبر المذكور أعلاه وما يدلنا على قصد نور الدين في هذا المعنى طلبه من قلج أرسلان في رسالته إليه تجديد إسلامه على يد رسول نور الدين ليحلَّ لنور الدين إقراره على بلاد الإسلام، ويفرض عليه إما مجاهدة الروم المجاورين له أو إرسال جنده إليه ليجاهد بهم الإفرنج في هذا الموقف يجعل نور الدين من نفسه مسؤولاً عن جميع المسلمين وعن بلادهم، ويتوجب عليه بناءً على هذه المسؤولية ألا يسمح بتولي حاكم غير مؤمن على بلاد المسلمين، ويجدر بنا أن نوضح هنا أن نور الدين كان يصدر في هذا الإحساس بالمسؤولية عن فهمه الصحيح للشريعة الإسلامية، فهو يعتبر نفسه جندياً في خدمة الدين، وروي عنه قوله: نحن شحنٌ لها (للشريعة) نمُضي أوامراها [٢]. وهذا القول ينطبق مع تفسير الإمام أبي حامد الغزالي للعلاقة بين الملك والدين حيث يقول الملك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع [٣]. وقد تقدم أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ولكن الأمر لا يقتصر على إحساس نور الدين بالمسؤولية وقد عبّر عن ذلك في رسالته لمجير الدين آبق حاكم دمشق بقوله:.. ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذّب عنها [٤]. فهو يعتبر أن توافر القدرة والإمكانية لديه يفرض عليه نصرة المسلمين والدفاع عنهم أينما كانوا، ويتكرر مثل هذا الموقف عام ٥٦٦هـ/١١٧١م في رسالته لشمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان [٥]. يتبين من هذه المواقف الثلاثة التي وقعت في تواريخ مختلفة ومتباعدة خلال فترة حكم نور الدين، الحادث الأول مع حاكم دمشق عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م والثاني مع حاكم أذربيجان وأصفهان عام ٥٦٦هـ/١١٧١م، والثالث مع سلطان سلاجقة الروم آسيا الصغرى عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م، أنه وضع أهدافه وقرر سياسته مُنذ بداية حكمه، ولم يغيّرها حتى نهاية حكمه، وأنه كان يسير حسب خطة محكمة تتألف من مراحل منسَّقة، لكل مرحلة هدفها، وأنه كان يتابع الأحداث الجارية، ويقتنص الفرصة

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.
(٢) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٤.
(٣) إحياء علوم الدين (١٧/١).
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٥٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٤.

المتاحة دون أن يؤثر ذلك على خطته الرئيسية وأهدافه الإستراتيجية [١].

* * *

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥.